الوقف الصحي في عهد سلاطين الدولة المغربية من خلال عدوتي الرباط وسلا

The health endowment during the era of the sultans of the Moroccan state Through the cities of Rabat and Salé

إعداد

د.نورالدين لرجى

Dr. Noureddine Larja

أستاذ بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات بالرباط - جامعة القرويين

Doi: 10.21608/jnal.2024.389620

استلام البحث ١٥ / ٨ / ٢٠٢٤

قبول البحث ١٥ / ٩ / ٢٠٢٤

لرجى، نورالدين (٢٠٢٤). الوقف الصحي في عهد سلاطين الدولة المغربية من خلال عدوتي الرباط وسلا. ***مجلة الناطقين بغير اللغة العربية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٧(٢٣)، ١١١ – ١٢٨.

http://jnal.journals.ekb.eg

الوقف الصحي في عهد سلاطين الدولة المغربية من خلال عدوتي الرباط وسلا

المستخلص:

اهتم المسلمون في ظل الحضارة الإسلامية بالعلوم الطبية والصحية، وبرز منهم علماء أفذاذ، في الوقت الذي كان فيه الغرب يجهلون الكثير عن بعض العلوم الطبية الدقيقة. والمجتمعات الإسلامية اهتمت بالمرض العضوي والنفسي على حد سواء، وأعطته قدرا من الأهمية كباقي الأمراض الأخرى عن طريق إنشاء المؤسسات الصحية، والتي تعتبر بحق أهم مظهر من مظاهر الرقي الاجتماعي التي أظهرت العناية الطبية، والتفوق العلمي الذي برع فيه المغاربة ووصلوا به إلى درجة من التطور الحضاري، حيث كانت رسالة هذه المؤسسات -المارستانات- نبيلة وسامية لا تهدف إلى غايات محددة أو أهداف معينة، وإنما كان قصدها؛ خدمة الإنسانية والمجتمع دون مقابل، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير، والمسلم والذمي. وقد لعبت الأوقاف الإسلامية أدوارا هامة عبر مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، في إنشاء هذه المؤسسات ونهضت بدور اجتماعي واقتصادي حيث مثلت روافد مهمة لبناء المجتمعات، والتصدي لعوامل تصدعها بفعل الفقر والعوز والأوبئة والجوائح الطبيعية وغيرها، كما كان له الأثر الإيجابي في تكييف الأجهزة المسؤولة في الدولة، وتخفيف الوطأة إلى حد بعيد على الميزانية العمومية. حيث خصصت لها أوقاف خاصة بها من أجل تسييرها والقيام بدورها، والإنفاق على الوافدين عليها والقائمين بها، على اعتبار أن الأوقاف حق خالص لجميع طبقات المجتمع، كما أن النظرية العامة التي كان يطبقها الملوك العلويون، اعتبار الأوقاف الإسلامية إرثا خاصا لجماعة المسلمين، وتخصيص مداخيلها وأوفارها للقيام بشعائر الإسلام، وتعليم الدين، ومواساة البؤساء والغرباء، فكانت تنفق على المساجد والمدارس والملاجئ والمارستانات.

الكلمات المفتاحية: الوقف – الصحي – المارستانات.

Abstract:

Under Islamic civilization, Muslims were interested in medical and health sciences, and outstanding scientists emerged from them, at a time when the West was ignorant of a lot about some precise medical sciences. Islamic societies paid attention to both physical and mental illness, and gave it a degree of importance like other diseases by establishing health institutions, which are truly considered the most important manifestation of social progress that demonstrated medical care and scientific excellence in which Moroccans excelled and brought it to a

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

degree of civilizational development. The mission of these institutions - the practices - was noble and lofty and did not aim for specific goals or objectives, but rather their intention was; Serving humanity and society without compensation, there is no difference between the rich and the poor, the Muslim and the non-Muslim. The Islamic Endowments played important roles across the various countries that successively ruled Morocco, in establishing these institutions and played a social and economic role, as they represented important tributaries for building societies and confronting the factors that fracture them due to poverty, destitution, epidemics, natural pandemics, and others.It also had a positive impact in adapting the responsible agencies. In the state, greatly reducing the burden on the general budget. As it was allocated its own endowments in order to manage it and carry out its role, and to spend on those who came to it and those responsible for it, considering that endowments are an exclusive right for all classes of society, and the general theory that was applied by the Alawite kings was to consider Islamic endowments as a special inheritance of the Muslim community, and to allocate their income and savings. To carry out the rituals of Islam, teach the religion, and console the miserables and strangers, it spent money on mosques, schools, shelters, and Psychology Clinics.

key words: Endowment (AL-WAKF) – Healthy – Psychology Clinic (Marstans)

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

إن القارئ لكتب الفقه الإسلامي، سيرى نظرة إنسانية رحبة ترعى الحقوق، وتنهض بالواجبات، وتقدم الرعاية والعناية للفقير واليتيم، وأصحاب العاهات البدنية أو العقلية.. حيث أنشئت منذ القديم المصحات المتخصصة في أنحاء العالم الإسلامي لتُهيء للمصابين العلاج والرعاية الصحية.. سواء كانت جسمية أو عقلية لمن أصيبوا

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

بشيء من ذلك، وكانت الدولة تقوم على رعايتها والعناية بها عن طريق الوقوف التي يرصدها المحسنون الواقفون .

هذا وقد اهتم سلاطين الدولة المغربية منذ القديم اهتماما كبيرا بالمجالات الاجتماعية، المتمثلة في العلوم الطبية والصحية، من خلال إنشاء مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم في أغلب المدن المغربية، مع الاعتماد على الأطباء والمشرفين على هذه المؤسسات من ذوي الكفاءات العالية للعمل بها، وكذا توفير جميع الاحتياجات الضرورية اللازمة لها، وهذه المؤسسات كان يطلق عليها في السابق اسم: "البيمارستان" أو "المارستان"، وهي في الأصل لفظة فارسية مركبة من كلمتي: "بيمار" وتعني مريض أو مصاب، و"ستان" وتعني دار، وبالتالي يكون معنى بيمارستان: "دار المرضى" واختصرت اللفظة إلى مارستان وأصبحت تطلق على المستشفيات التي يعالج فيها المرضى والمصابون بعاهات عقلية[١] .

وهذا النوع من المؤسسات الصحية يعتبر بحق أهم مظهر من مظاهر الرقي الاجتماعي التي أظهرت العناية الطبية، والتفوق العلمي الذي برع فيه المغاربة ووصلوا به إلى درجة من التطور الحضاري، حيث كانت رسالة هذه المؤسسات - المارستانات- نبيلة وسامية لا تهدف إلى غايات محددة أو أهداف معينة، وإنما كان قصدها؛ خدمة الإنسانية والمجتمع دون مقابل، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير، والمسلم والذمي.

وسنتناول في هذه الورقة البحثية الحديث عن هذه المؤسسات الصحية في حاضرتي الرباط وسلا، إبان حكم سلاطين الدولة المغربية: (المبحث الأول) وعن دور الأوقاف في إنشائها ورعايتها وتنظيمها: (المبحث الثاني).

المبحث الأول: تاريخ المؤسسات الصحية في حاضرتي الرباط وسلا:

اهتم المسلمون في ظل الحضارة الإسلامية بالعلوم الطبية والصحية، وبرز منهم علماء أفذاذ كـ: "أبي بكر الرازي"، و"ابن الهيثم" وغيرهما، في الوقت الذي كان فيه الغرب يجهلون الكثير عن بعض العلوم الطبية الدقيقة، كما أن الاعتقاد الساد عند الغرب هو أن المرضى النفسيين هم مجانين ولا يجب التعامل معهم، بل وأن المرض النفسي بحد ذاته مرض لا وجود له، على عكس الدول الإسلامية التي تهتم بالمرض العضوي والنفسي على حد سواء، وتعطيه قدره من الأهمية شأنه شأن باقي الأمراض الأخرى.

وقبل الحديث عن أهم المارستانات التي كانت توجد بمدينتي الرباط وسلا عبر تاريخها الطويل، لا بد أن نلقي نظرة عن تاريخ المارستان في عصر الدولة

[١]- انظر: التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية، محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير الكتاني دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان د.ط ، د.ت، (٢٩٧/١)

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

الإسلامية (المطلب الأول) ثم الحديث عن أول مارستان شيد في عهد الدولة المغربية (المطلب الثاني) لنختم المبحث بالكلام عن أهم مارستانات حاضرتي الرباط وسلا (المطلب الثالث)

المطلب الأول: أول مارستان في الإسلام:

إن أول مؤسسة صحية شيدت في عهد الدولة الإسلامية؛ هي خيمة الرسول ﷺ التي ضربها في مسجده المدينة يوم الخندق لمداواة الجرحى، وجعل فيه امرأة تتولى القيام بخدمة المصابين، فلقد أصيب سعد يوم الخندق، حيث رَمَاهُ رجل من قريش، فضرب رسول الله ﷺ في المسجد خيمة يعوده من قريب...[٢].

أما عن إنشاء المستشفيات فيما بعد العهد النبوي فيقول الدكتور: "جوزيف جارلند" في كتابه "قصة الطب": وقد أسس العرب عدداً من المستشفيات الممتازة، جعلوها مراكز لدراسة الطب وعلاج المرضى كأحدث المستشفيات، وقد بلغ عدد هذه المستشفيات أربعة وثلاثين موزعة بين أنحاء الإمبراطورية الإسلامية، وإن كان أهمها مستشفيات بغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة"[٣].

أما عن أهم المراكز الصحية التي كانت منتشرة في ذلك الزمان، فقد ذكر المقريزي أن أول من بنى البيمارستان في الإسلام، ودار المرضى هو الوليد بن عبد الملك عام: ٨٨ هـ، وكانت هذه المؤسسات ذات وظيفة صحية إنسانية وتعليمية في وقت واحد، حيث جعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق[٤]. وهو ما تؤكده المصادر التاريخية التي أرخت لتاريخ الصب في الدولة الإسلامية.

كما نجد أن هذه المؤسسات الصحية قد تكاثرت في العصر العباسي فشيد عدد كبير منها في بغداد ودمشق.

وإذا انتقلنا للحديث عن المؤسسات الصحية بمصر، فنجد العديد من البيمارستانات الشهيرة، نذكر منها بيمارستان زقاق القناديل، من أزقة فسطاط مصر، وبيمارستانات المعافر في حي المعافر بالفسطاط قرب القرافية، بناه الفتح بن خان في أيام الخليفة المتوكل على الله، والبيمارستان العتيق الذي أنشأه أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ - ٨٧٣م والذي يعتبر أول مارستان كبير بمصر...[٥].

---

[٢]- الحديث الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها.

[٣]- انظر: أضواء على تاريخ الطب، د/ محمود السعيد الطنطاوي، سلسلة دراسات في الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد ١٨٣، (ص: ٥٥٨).

[٤]- انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدين المقريزي، دار صادر، بيروت: (٤٠٥/٢)، والتراتيب الإدارية للكتاني (٤٥٤/١).

[٥]- انظر: الوقف في الفكر الإسلامي، محمد بن عبد العزيز بنعبد الله منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ١٤١٦هـ-١٩٩٦م: (١٤٨/٢ – ١٤٩).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

كما عرفت الحواضر الإسلامية هذا النوع من الأبنة الطبية، وكان ملوك وخلافاء الدولة الإسلامية يبالغون في العناية بها، وذلك بانتقاء المكان الملائم، الذي يصلح لإقامتها، وكانت لهم سياسة طبية مرسومة في إدارتها وتسييرها.

المطلب الثاني: أول مارستان في المغرب:

على غرار المؤسسات الصحية التي أنشئت في المشرق، عرفت الدولة المغربية إنشاء عدة مارستانات، وجعلت لها أوقاف تقوم باحتياجاتها، وكان أول مارستان عرف بالمغرب هو الذي أسسه المنصور الموحدي بمراكش قبل تأسيس القاهرة بقرن تقريبا[٦]، إذ يعتبر من أهم المارستانات وأكثرها شهرة، لما حظي به من عناية وإتقان، في التشييد والبناء، والتنظيم الإداري.

كما أقام السلطان المريني أبـو يوسف مارستانا للغرباء والمجانين، وأجرى عليها النفقات، وخصص لها الأطباء، وهكذا نجد بفاس ربضا يسكنه المجذومون ويضم قرابة مائتي بيت.. وتتـوافر لهؤلاء المرضى كل الضروريات بحيث لايحتاجون إلى شيء[٧].

وأسس السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني مارستان "سيدي فرج" لمداواة المرضى والمجانين، وخصص له الأوقاف، ووفر له كل ما يحتاجه المرضى، كما خصص له أطباء لتقديم الخدمات الصحية للراقدين فيها، واشتهر المكان بـ: "سيدي فرج" وهو الواقع بالقرب من سوق العطارين وسوق الحناء بفاس[٨].

وعمل هذا المارستان على ابتكار طرق حديثة لعلاج المرضى من الجنون، حيث كانوا يعالجون بالموسيقى والغناء مع استعمال آلات الطرب المختلفة، وكان على أهل الطرب أن يحضروا كل أسبوع مرة أو مرتين لأن ذلك يفيد في انشراح الصدر وإنعاش الروح، فتقوى ضربات القلب، وتعود الأعضاء الجسمية إلى تأدية وظائفها[٩].

---

[٦]- انظر: المعجب في تلخيص تاريخ المغرب محمد بن علي المراكشي، شرح واعتناء: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م: (ص: ٤١١).

[٧]- انظر: الوقف في الفكر الإسلامي محمد بنعبد الله: (١٥١/١).

[٨]- انظر: الحضارة العربية الإسلامية (ص: ١٥١).

[٩]- انظر: مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، محمد بن شقرون، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ١٩٨٥م: (ص: ٢٢٥ – ٢٢٥).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

كما أن أبا عنان المريني كان له اهتمام كبير بالمجال الصحي، ومؤسساته، حيث شاد المارستانات في كل بلد في إيالته، وأجرى عليها الأوقاف الكثيرة لمعالجة المرضى والعناية بهم، وعين الأطباء لمداواتهم والتصرف في مطالهم[١٠].

فشيد بمدينة تازة مارستانا لمعالجة المرضى والمصابين بالعاهات، كما وقف مارستان مكناس في "حمام الجديد"، الذي يشتمل على أقسام مخصصة لعلاج المرضى، ولإقامة المعتوهين، وهو مقسم لقسمين: قسم لعلاج المرضى يتكون من حجرات صغيرة تتناسق من ثلاثة جهات، والقسم الثاني: يخصص لإقامة المعتوهين[١١].

هذه بعض النماذج أضعها بين يديكم، كدليل على النهضة الإنسانية التي كان يعيشها المجتمع المغربي، وهناك أمثلة كثيرة تبرز لنا وبجلاء الأعصر الزاهية، والأيام الناضرة لما كانت عليه الأمة المغربية، التي ظهرت بها روح الجماعة في إدارة الأوقاف، التي تسعى في جزء كبير منها إلى تنظيم المستشفيات وغيرها.

المطلب الثالث: أهم مارستانات الرباط وسلا:

أولا:مارستان سلا القديم:

تعددت التسمات التي أطلقت على هذه المؤسسة الصحية، منها: مارستان أبي عنان نسبة إلى مشيده؛ أبي عنان ابن الحسن المريني. ومنها: المارستان القديم، تمييزا له عن المارستان الجديد وهو مارستان سيدي ابن عاشر الآتي ذكره. ومنها: فندق آسكور، نظرا لأن البناية في بداية إنشائها كانت عبارة عن فندق. ومنها: التسمية الجديدة التي أطلقت عليه بعد إعادة ترميم هذه البناية، وهي: "دار القاضي".

وهو من آثار دولة بني مرين بمدينة سلا، وكان يعرف بالمارستان، أو المدرسة الطبية العلمية، وقد بنيت هذه المعلمة الرائعة في عهد السلطان أبي عنان المريني بمدينة سلا أواسط المائة الثامنة للهجرة، الموافقة لأواسط القرن الرابع عشر الميلادي، في حارة اليهود من حومة باب احسين، وهو بناء حفيل مشتمل على بيوت كثيرة لاستقرار المرضى والمجانين والحمقى بها، وأجرى له الماء لشدة الحاجة إليه من الماء الداخل على سور أبيه -سور الأقواس-.

وكان هذا المحل قد شغل أيضاً فندقا للزيت قديما. وبه كان أيضا مسكن للعارف أبى موسى الدكالي، ولا يزال بيته معروفا إلى الآن. فبنى أبو عنان به مجموعة من الحجرات، وعين له أطباء مهرة من الذين يعانون العلم قراءة وعلاجا. وكان أكبرهم: "الشيخ ابن غياث السلاوي"، وكان مرتبا لهم الجرايات والصِّلاة على

---

[١٠]- انظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة الطنجي، المكتبة التجارية بمصر: (١٨٤/٢).

[١١]- انظر: الوقف في الفكر الإسلامي محمد بنعبد الله: (١٥٤/٢).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

ما يعانون، فكان سوق الطب كسائر المعارف والعلوم رائجا بأقطار المغرب لاعتناء الملوك به.

ولما تقهقر حال الدولة المرينية وضعف حال ملوكها، تم هجر المكان، ولاسيما لكونه بحارة اليهود. فلم تبق منه منفعة الطب ولا صلات الملوك وجرياتهم، فأشبه الفندق المعطل وتطرق إليه الخراب لهجرانه، وبقي معطلا مهملا قرونا وأجيالا، وأشرف بناؤه الرفيع على الخراب، فنقض بناؤه وأعيد لحالته الأولى كما كان فندقا، فتغيرت محاسنه، وتناثر زِلِّيجُهُ، وتُنُوسِيَ أمره، وبقي بابه شاهدا لحسن بنائه عليه كتابة اشتملت على رسم بانيه أبو عنان فارس المريني، وعلى تسميته بالمارستان، مكتوب ذلك في الزليج الأسود الملصق على تاج الباب المذكور[١٢].

وفي الوقت الحاضر وبعد إعادة ترميم هذه المعلمة التاريخية، أصبحت مفخرة لكل ساكنة مدينة سلا كونها ستصبح متحفا متميزا للتحف الناذرة المتعلقة بمدينة سلا، وبالتالي مزارا لاستقطاب أكبر عدد ممكن للزوار المحليين والأجانب.

ثانيا: مـارسـتـان سلا الـجـديـد:

يحمل هذا المارستان كسابقه عدة أسماء تم تداولها بين العامة والباحثين في الحقل التاريخي، من هذه الأسماء نجد: "المارستان الجديد" لأن بناءه جاء تاليا لمارستان أبي عنان المريني. ومنها: "مارستان سيدي ابن عاشر" وذلك بالنظر إلى المكان الذي أنشئ به لأنه جاء بالمحاذاة من ضريح الولي الصالح، والطبيب الماهر: "سيدي ابن عاشر". ومنها: "مارستان سلا" كما جاء في كتب التاريخ التي تحدثت عن هذا النوع من المعمار الحضاري، كصاحب تاريخ البيمارستان وغيره[١٣].

وقد كانت اللبنة الأولى في تشييد هذا الصرح الصحي على يد الولي الصالح: سيدي أبي العباس أحمد بن عاشر الأنصاري الأندلسي، لأن بعد قدومه من بلاد الأندلس، جعل مقامه بسلا، وذلك في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وأخذ -رحمه الله- يعالج المرضى، واشتهر اسمه بسيدي ابن عاشر الطبيب، وبعد وفاته رحمه الله تم إنشاء وبناء مارستان بالقرب من ضريحه[١٤].

---

[١٢]- الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين محمد بن علي الدكالي، تحقيق: مصطفى بو شعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا المغرب، الطبعة الثانية: ١٩٩٦م: (ص: ٧٣ - ٧٤)، والمغرب عبر التاريخ إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء المغرب، ٢٠٠٠م: (١٦١/٢)، وموجز تاريخ سلا لكنيت براون ترجمة محمد جبيدة وأناس لعلو مجلة أمل التاريخ والثقافة الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م: (ص: ٤٤).

[١٣]- انظر: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، الدكتور أحمد عيسى بك، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م: (ص: ٢٨٢ – ٢٨٤).

[١٤]- المرجع نفسه.

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

والسبب في بناء هذا المرستان الرفيع العام النفع والبركة هو: أنه لما هُجِر مارستان أبي عنان المريني، واشتهرت كرامات سيدي ابن عاشر على الولاء والتتابع، وقصد الناس قبره من الأقطار النائية والأقاليم البعيدة، لما يتحدث به عنه من خوارق الكرامات، كبُرْءِ المفلوجين[١٥] والمصروعين[١٦]، وذوي العمى والرمد والمقعدين، فلما طبق ذكر حال هذا الآفاق، بنى عليه السلطان الأسعد مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل قبة عظيمة على يد قائده أبي عبد الله الحوات، فرغ منها يوم الجمعة رابع رجب سنة ست وأربعين ومائة وألف (١١٤٦هـ)، وكان عليه قبل ذلك حوش تظله شجرة تين.

ولما جاءت دولة مولانا عبد الرحمن محب الصالحين، والعلماء العاملين، اقتضى نظره السديد أن يبني له مارستانا، مشتمل على بيوت للمرضى، لما رآه من تطارح الناس على قبره ووجدان الراحة بسبب ذلك. وقضت التجربة بتحقيق أمره - رضي الله- فأَدَارَ بقبة الضريح بيوتا متصلة نحو الثلاثين بيتا بين كبير وصغير، وبنى لهذا المارستان جامعا مربعا للصلاة ودَارَيْ وضوء، لهما سقايتا ماء جار من الماء الداخل من سور الأقواس: إحداهما للرجال، والأخرى للنساء. وكان تاريخ الفراغ من بنائه عام: ١٢٤٧هـ، كما هو مرسوم على باب المارستان، وجاء في غاية الحسن والإتقان، وقد أحدث بعض ذوي الغنى بسلا في عصر العلامة محمد بن علي الدكالي زيادة بيوت ملاصقة لهذا المارستان يتوسع فيها المرضى الذين يردون على هذا الضريح، نفع الله الجميع بقصده [١٧].

ثالثا: المارستان العزيزي:

يعتبر المارستان العزيزي من الأبنية التاريخية الأثرية القديمة برباط الفتح، والتي تنسب إلى بني مرين.

ويقع مكانه في القسم الشمالي من الجانب الغربي من زقاق باب شالة، قبالة الجامع الكبير، وينسب إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني وهو ما رجحه الدكتور جعفر بن أحمد الناصري[١٨].

---

[١٥]- هم المصابون بالشلل النصفي.

[١٦]- هم المطروحين أرضا والمهزومين لشدة ما نزل بهم من الصرع.

[١٧]- انظر: الأتحاف الوجيز للدكالي: (ص: ٧٤ – ٧٥).

[١٨]- حيث ذكر أنه كان في دولة بني مرين سلطانان كل منهما اسمه عبد العزيز هما:

١) عبد العزيز بن أبي الحسن، الذي تولى سنة سبع وستين وسبعمائة (٧٦٧هـ وتوفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة ٧٧٤هـ.

٢) عبد العزيز أبي العباس بن أبي سالم، تولى سنة ست وتسعين وسبعمائة ٧٦٩هـ وتوفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة ٧٩٩هـ.

فلا يعلم من هو الذي ينسب إليه هذا المارستان.

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

ويقال إن هذا المارستان، كان في ابتداء أمره مدرسة لطلبة العلم المترددين على الجامع الكبير لتلقي العلوم، وكانت مضافة للمسجد كغيرها من المدارس المرينية حول المساجد بفاس ومكناس، وسلا...[١٩].

ويتكون بناء المارستان من صحن مركزي مربع الشكل، تحيط به أروقة تطل على الصحن بسواري وأقواس بسيطة. والبناء بوجه عام شبيه ببناء المدارس المرينية، ولكن ينقصه بيت الصلاة، كما يفتقر إلى الزخرفة، ويغلب على البناء في الوقت الحاضر الطابع العلوي، حيث أنه جُدِّدَ في عصر الدولة العلوية الشريفة[٢٠].

وقد أشار الناصري إلى هذا الأمر فقال: "يقول الفنيون من المهندسين والباحثين في الآثار القديمة وتمييز خصائصها، ومقابلة بعضها ببعض: إن بناء هذا المارستان الموجود اليوم، مطبوع بالطابع العلوي، ولا مشابهة بينه وبين المعاهد الدينية المرينية"[٢١].

رابعا: مارستان امحمد الغازي:

هذا المارستان كغيره من المارستانات يحمل عدة أسماء، من بين ما وقفنا عليه في ذلك: "مارستان سيدي امحمد الغازي"، و"مارستان سيدي بوضربات".

وموقعه هذا المستشفى بمدينة الرباط، وهو يعرف باسم صاحبه الولي الصالح: "سيدي امحمد الغازي" المعروف ببوضربات، ذي الأحوال الربانية، عاصر السلطان

والذي نرجحه، أنه عبد العزيز الأول، لأنه طالت مدته، ورحل من فاس إلى مراكش مرتين: الأولى: لمحاربة الأمير، أبي الفضل، ابن أبي سالم الذي ثائرا بها عليه.

والثانية: لمحاربة عامر بن محمد الهنتاتي حتى ظفر به، وربما كانت جبوشه وولاته المتنقلون بين فاس ومراكش، يمرون برباط الفتح، وفي أثناء مرورهم وإقامتهم به، حدث بناء هذا المارستان أو المدرسة على ما قيل، أو ربما كان أمر عبد العزيز ببنائه أو بنائها، لأننا لم نتقف على من ذكر أنه رباط الفتح أو نزل بساحته.

وأما عبد العزيز الثاني بن أبي العباس، فقد كانت مدته قصيرة، ولم ينقل عنه عمل مهم في الدولة، ولا أنه تحرك لناحية الجنوب، أو وصل رباط الفتح.

انظر: سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، جعفر بن أحمد الناصري، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة تاريخ المغرب، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦هـ : (١٠٦/٢).

[١٩]- انظر: تاريخ رباط الفتح، عبد الله السوسي، مطبوعات دار المغرب، ١٩٧٩م: (ص: ١٣٨)، وكتاب: سلا ورباط الفتح، جعفر بن أحمد الناصري: (١٠٦/٢ -١٠٧).

[٢٠]- انظر: مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي، لسحر عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٩٦م: (ص: ١٤٧).

[٢١]- انظر: سلا ورباط الفتح، جعفر بن أحمد الناصري: (ص١٠٧/٢).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

أحمد الذهبي، وهو صاحب الضريح المشهور بشارع سيدي فاتح قرب جامع مولاي سليمان، عاش أواخر القرن التاسع أيام الدولة السعدية، ولا يعرف تاريخ وفاته، وكان ضريحه مقصودا من سائر أنحاء المغرب بقصد العلاج والاستشفاء، خصوصا لمن سلب عقله، وربط في مقامه من أهل الاختلال والاعتلال فيعود كأنما نشط من عقال[٢٢].

والمقام مع ما اتصل به على قسمين: قسم به روضة للدفن من الجهة التي فيها عائشة المصباحية، والقسم الباقي وقف أو حبس من أولاد أوفقير وغيرهم مخصصة للوافدين على الضريح من أجل الاستشفاء[٢٣].

وقد جدد بناءه المولى عبد الرحمن بن هشام، وبه بضع غرف تصطف بشكل دائري، كانت مأوى للمرضى والمخبولين الذين يقصدونها من أنحاء المغرب، وقد نوه به الشيخ أبو بكر البناني وأثبت ذكره في رسائله، بعضه كان روضة للدفن وبعضه حبس من أسرة أولاد أفقير الرباطيين، وقد تكلم عنه عبد الله الجراري في كاتبه[٢٤].

هذه جملة من المؤسسات الصحية التي كانت مشيدة بحاضرتي الرباط وسلا في عصرهما الزاهر، والملفت للانتباه أن هذه المارستانات التي فصلنا الكلام عنها وغيرها، لم تكن مهمتها مقتصرة على مداواة المرضى فحسب، بل كانت في نفس الوقت معاهد علمية، ومدارس لتعليم الطب يتخرج منها المتطببون والجراحون، ولا أدل على ذلك ما جاء في وصف بعضها، حيث جزم الناصري في الاستقصا أن مارستان سلا والذي كان بناؤه أواسط المائة الثامنة للهجرة، كان في الأصل مدرسة لتعليم الطلبة، غير أن تلميذه محمد بن علي الدكالي مؤرخ مدينة سلا، ذكر أنه مارستان شيد لمداواة المرضى.

---

[٢٢]- انظر: الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، محمد بن مصطفى بوجندار، تحقيق: أحمد بن عبد الكريم نجيب، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م : (ص: ٢٨٩).

[٢٣]- انظر: الوقف في الفكر الإسلامي، محمد بن عبد العزيز بنعبد الله منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م: (١/١٥٥).

[٢٤]- انظر: ورقات في أولياء الرباط ومساجده وزواياه لعبد الله الجراري، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٨٠م: (ص: ١٠-١١).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

وقد حاول المؤرخ جعفر بن أحمد الناصري الجمع بين هذه الأقوال في مؤلفه: "سلا ورباط الفتح" فقال: "ويمكن الجمع بين كون هذه البناية الشامخة مدرسة ومارستانا، بأنه كان أقساما كما هو الشأن في الدارس والكليات الكبرى الطبية والعلمية.

على أنه ثبت في التاريخ أنه كان من عادة ملوك الإسلام قديما أنهم كانوا يجعلون المارستانات مدارس طبية ومعاهد علمية، لأنهم كانوا يقرؤون فيها الطب علما وعملا"[٢٥].

المبحث الثاني: دور الوقف في إنشاء المؤسسات الصحية بمدينتي الرباط وسلا:

لعبت الأوقاف الإسلامية أدوارا هامة عبر مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، ونهضت بدور اجتماعي واقتصادي حيث مثلت روافد مهمة لبناء المجتمعات، والتصدي لعوامل تصدعها بفعل الفقر والعوز والأوبئة والجوائح الطبيعية وغيرها، كما كان له الأثر الإيجابي في تكييف الأجهزة المسؤولة في الدولة، وتخفيف الوطأة إلى حد بعيد على الميزانية العمومية.

وإذا كان الشرع الإسلامي ينظر إلى الوحدة الوقفية كمؤسسة بحد ذاتها، لها الشخصية الاعتبارية، فإن مكونات هذه الشخصية لا ترتكز على العقارات الموقوفة، بل على جهاتها التي رُصِدت لها هذه الأوقاف، وهي تبتغي حماية الدين ورعاية مؤسساته الدينية والاجتماعية والثقافة، والإنفاق على القائمين عليها، ونظرا للقيمة الدينية، والأمانة الملقاة على عاتق ولاة الأمر في تدبير الأوقاف كان سلاطين الدولة المغربية محافظين تمام المحافظة على مبدأ أن الأحباس لا تباع ولا ترهن ولا يضيع منها قليل ولا كثير، إيمانا منهم بأن الملة إذا لم تكن لها أوقاف ثابتة مصونة تنفق عليها وتصرف على القائمين بحفظها ونشر تعاليمها، فإنها تصبح معرضة لكثير من الأخطار.

وملوكنا المقدسون بصفتهم أمراء المؤمنين والرؤساء الأعْلَيْن، لجماعة المسلمين، كانوا أشد الناس تقديرا لمسؤولية الإسلام الملقاة على عاتقهم، وأحرصهم على حفظ الأمانة التي ورثوها عن آبائهم[٢٦].

---

[٢٥]- انظر: سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، جعفر بن أحمد الناصري: (٧٤/٢)

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

وبالنظر للمارستانات التي فصلنا الحديث عنها وغيرها التي لم تذكر في هذه الورقة البحثية وهي كثيرة، نجد أنها قد خصصت لها أوقاف خاصة بها من أجل تسييرها والقيام بدورها، والإنفاق على الوافدين عليها والقائمين بها، على اعتبار أن الأوقاف حق خالص لجميع طبقات المجتمع، كما أن النظرية العامة التي كان يطبقها الملوك العلويون الأكرمون، ومن قبلهم من ملوك الدولة المغربية، اعتبار الأوقاف الإسلامية تراثا خاصا لجماعة المسلمين، وتخصيص مداخيلها وأوفارها للقيام بشعائر الإسلام، وتعليم الدين، ومؤاساة البؤساء والغرباء، فكانت تنفق على المساجد والمدارس والملاجئ والمارستانات[٢٧].

وكان الغرض من الأوقاف المخصصة للمارستانات هو ضمان استمراريتها وفعاليتها، وخدمة مرتفقيها في المجال الصحي، فكان لا بد من وجود أوقاف سواء كانت من نفقات الدولة أو المحسنين لمراعاة هذه المارستانات، والتي ترفع الحرج عن المرضى وخاصة الفقراء منهم الذين لا يستطيعون تحمل تكاليف العلاج وما يترتب عليه، فيكون الوقف سببا في راحتهم وعادتهم.

فتزايد عبر الحقب التاريخية للدولة المغربية الاهتمام بالوقف في المجال الصحي، وبرز بشكل جلي من خلال المارستانات والدور الصحية لعلاج الإنسان بل وحتى الحيوان في بعض الأوقات.

وقد كانت هذه المارستانات غنية عن طريق الأوقاف، إذ يحكى أن في بعض الحروب التي شنت إبان حكم أحد سلاطين الدولة المغربية، نصح بعضهم الملك ببيع أوقافها وأملاكها لما أصبح بحاجة ماسة للمال...، ولما رفض السكان قبول ذلك، تقدم أحد نواب الملك، وأفهمه أن هذه المارستانات كانت قد تأسست بفضل الصدقات والوقوف التي كانت تمنح من أسلاف الملك الحالي، ونظرا لتعرض الملك لخطر ضياع مملكته، فمن الواجب بيع الأملاك العقارية لصد العدو، وبمجرد انتهاء الحرب يمكن شراؤها بسهولة من جديد...[٢٨].

والحقيقة أن أوقاف المارستانات كانت كثيرة ومتنوعة، إلا أن ما يجدر الإشارة إليه هو أن الأوقاف المتعلقة بالمجال الصحي في حاضرتي الرباط وسلا لم

---

[٢٦]- انظر: الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، المكي الناصري منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م : (ص: ٢١).

[٢٧]- المرجع نفسه.

[٢٨]- انظر: الوقف في الفكر الإسلامي (١٥٢/١).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

تذكر بشكل مفصل في المصادر التاريخية التي أرخت لهذه المارستانات، إلا ما جاء من إشارات بسيطة إلى أن لهذه المارستانات أوقافا خاصة بها.

ومن بين الإشارات التي جاءت في خصوص أوقاف هذه المارستانات نجد: ما ذكره الشيخ المكي الناصري بهذا الصدد فقال: "قام المولى عبد الرحمن بإصدار أوامره ببناء مارستان عظيم بسلا فبني كما أراد، وكان صائره كله من أحباس المسجد الأعظم برباط الفتح"[٢٩].

ومن الإشارات الدالة على وجود أوقاف لمارستان سيدي امحمد الغازي يقول صاحب كتاب الاغتباط: "والمقام مع ما اتصل به على قسمين: قسم به روضة للدفن من الجهة التي فيها عائشة المصباحية، والقسم الباقي وقف أو حبس من أولاد أوفقير وغيرهم مخصصة للوافدين على الضريح من أجل الاستشفاء"[٣٠].

وأما عن أوقاف المارستان القديم بسلا، والمارستان العزيزي؛ فقد أورد العلامة المكي الناصري: "أن المولى عبد الرحمن قام بإصدار أوامره ببناء مارستان عظيم بسلا فبني كما أراد، وكان صائره كله من أحباس المسجد الأعظم برباط الفتح، كما قام ببناء المارستان بمدينة سلا بضريح الولي الصالح سيدي ابن عاشر"[٣١].

كما أورد "كنيت براون" في كتابه موجز تاريخ سلا: "أن السلطان أبا عنان المريني بنى مارستان سلا، وعين له أطباء مهرة من الذين يعانون العلم قراءة وعلاجا. وكان مرتبا لهم الجرايات والصلاة على ما يعانون، فكان سوق الطب كسائر العلوم رائجا بأقطار المغرب لاعتناء الملوك به"[٣٢].

فهذه بعض الإشارات الدالة على الاهتمام البالغ بالوقف الصحي الذي كان مخصصا لهذه المارستانات، والذي يرجع الفضل فيه بالدرجة الأولى إلى ملوك وسلاطين الدولة المغربية، حيث تجسدت عندهم فكرة شمول المارستانات لكل مشاريع البر والإحسان، فعملوا على بنائها وتجديد البعض منها بترميمها، والقيام بتعيين القائمين عليها وتخصيص الأوقاف من أجل تسييرها، والانفاق على مرتفقيها من المرضى الذين يعالجون بها، فكانوا بحق أسوة لعدد من المحسنين والأغناء

---

[٢٩]- الأحباس الإسلامية، المكي الناصري (ص: ١٩).

[٣٠]- انظر: الاغتباط محمد بوجندار: (ص: ٢٨٩).

[٣١]- انظر: الأحباس الإسلامية، المكي الناصري (ص:٢٣).

[٣٢]- انظر: موجز تاريخ لكينت براون ترجمة محمد بوجندار وأناس لعلو منشورات مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع الدار البيضاء المغرب الطبعة الأولى: ٢٠٠١م: (ص: ٤٤).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

الميسورين، فقدموا العطاءات الجزيلة، وخصصوا لهم من أموالهم الخاصة أوقافا لمساعدة المرضى والمعوزين.

ومما يدل على أن الاهتمام بالوقف الصحي لم يكن منحصرا على الملوك وسلاطين الدولة المغربية فحسب، وإنما تعداهم لأهل الخير والإحسان من عامة الناس، ما جاء في بعض الحوالات الحبسية من أنه تم تخصيص من طرف بعض الناس أوقاف للموسقيين الذين يسمعون المصابين في أوقات معينة ما يخففون به عنهم[٣٣].

فهذه الحوالة وغيرها تؤكد على أن الوقف يشكل إطارا مؤسساتيا للتكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء والمعدمين، فهو يعمل على تلبية العديد من الحاجات الضرورية للفئات المحرومة، ويسهم في بناء نظام التأمينات الاجتماعية الصحية الذي يتوافق مع ما هو معمول به في وقتنا الحاضر، والذي يمكن الراغبين من الحصول على الخدمات الصحية الضرورية لهم.

خاتمة:

من خلال هذا السرد لمختلف المارستانات التي عرفتها حاضرتي الرباط وسلا، ومساهمة سلاطين الدولة المغربية وأهل الخير والبر من أبناء الشعب المغربي في تشييدها والعناية بها، وبالمرضى الذين يقصدونها من أجل الاستشفاء، يتجلى لنا وبصورة واضحة الجانب الإنساني الذي كان سائدا في هذا القطر المغربي، كما برزت لنا صورة الاهتمام البالغ بالمنظومة الصحية التي حظيت بالإشراف من قبل السلطة الحاكمة، حتى يتم تحقيق الغرض من تشييد هذه المرافق والمؤسسات الصحية في مختلف ربوع البلاد، واضعين أولى اللبنات من أجل ضمان استمرار عمل هذه المؤسسات، وذلك بتخصيص الأوقاف التي تساعدها على أداء مهمتها، إلى جانب ذلك كانت إسهامات المحسنين وأهل البر تعمل على توفير جزء من الاحتياجات هذه المارستانات من أكل وشرب وملبس وأدوية لمعالجة المرضى، وفي هذا دليل على تضامن أفراد المجتمع بكل أصنافه، وهو يساعد إلى حد كبير في تذويب الفوارق الاجتماعية.

[٣٣]- جامع القرويين لعبد الهادي التازي، دار نشر المعرفة، الرباط المغرب، الطبعة الأولى: ١٩٧٢م: (٤٥٧/٢).

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

وكان الغرض من هذه الورقة البحثية المتواضعة هو طرح تجربة تاريخية عرفتها حاضرتي الرباط وسلا، ومدى الأثر النافع الذي انعكس على المجتمع برمته، وهي تجربة الوقف الصحي في تشييد المؤسسات الصحية والعناية بها وبمرتفقيها، ونرى أن مثل هذه التجربة ينبغي أن نعمل على إحيائها وتجسيدها على أرض الواقع في مجتمعاتنا الحالية، خصوصا مع تنامي نسبة الفقر بين الأوساط الاجتماعية، واتساع الهوة بين الفقير والغني وبروز شتى أنواع الأمراض والأوبئة الفتاكة.

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

المصادر والمراجع:

الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين محمد بن علي الدكالي، تحقيق: مصطفى بو شعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا المغرب، الطبعة الثانية: ١٩٩٦م.
الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، المكي الناصري منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
أضواء على تاريخ الطب، د/ محمود السعيد الطنطاوي، سلسلة دراسات في الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد ١٨٣، ص ٥٥٨.
الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، محمد بن مصطفى بوجندار، تحقيق: أحمد بن عبد الكريم نجيب، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م.
تاريخ البيمارستانات في الإسلام، الدكتور أحمد عيسى بك، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
تاريخ رباط الفتح، عبد الله السوسي، مطبوعات دار المغرب، ١٩٧٩م.
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة الطنجي، المكتبة التجارية بمصر .
التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية، محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير الكتاني دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان د.ط ، د.ت.
جامع القرويين لعبد الهادي التازي، دار نشر المعرفة، الرباط المغرب، الطبعة الأولى: ١٩٧٢م.
سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، جعفر بن أحمد الناصري، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة تاريخ المغرب، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦هـ
مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي، لسحر عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٩٦م.
مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، محمد بن شقرون، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ١٩٨٥م
المعجب في تلخيص تاريخ المغرب محمد بن علي المراكشي، شرح واعتناء: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدين المقريزي، دار صادر، بيروت.
موجز تاريخ سلا لكنيت براون ترجمة محمد جبيدة وأناس لعلو مجلة أمل التاريخ والثقافة الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.
والمغرب عبر التاريخ إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء المغرب، ٢٠٠٠م.

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

ورقات في أولياء الرباط ومساجده وزواياه لعبد الله الجراري، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٨٠م.
الوقف في الفكر الإسلامي، محمد بن عبد العزيز بنعبد الله منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391